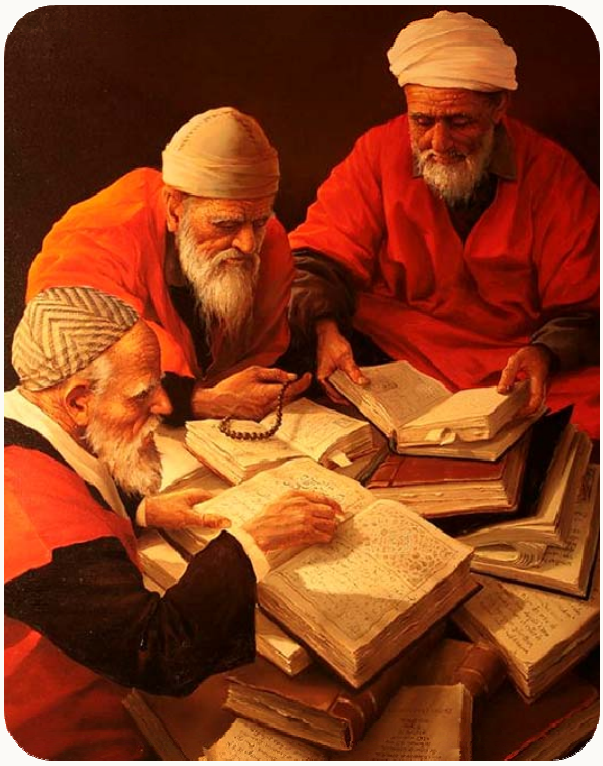

صُنّاع الكتب

في بلاد الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

مساهمة في دراسة أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية

د. أحمد الصديقي

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

الرشيدية – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أحمد الصديقي، صُنّاع الكتب في بلاد الغرب الإسلامي في العصر الوسيط: مساهمة في دراسة أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية.- دورية كان التاريخية.- العدد الثاني والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٣. ص ١٦٩ – ١٧٦.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّص

يثير موضوع الوراقة سؤالاً راهنيًا حول مساهمة الوراقين وصانعي الكتب في نشر الوعي بأهمية الكتاب وزرع ثقافة القراءة، مما يجعل إعادة الاعتبار لهذه الشريحة الاجتماعية بإعادة قراءة أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية اعترافًا بأدوارها الريادية، وإثارة لموضوع الكتاب الذي طالما عقدت بشأنه الندوات والمؤتمرات لتحفيز الناشئة على مصاحبته، دون أن نسيان الجميل الأنامل التي خطت كثيرًا من الذخائر التراثية التي لاتزال شاهدة على عراقة المهنة وشهامة ممتهنها.

مُقَدِّمَة

تشير كثير من الدراسات التي قاربت موضوع مجتمع الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط إلى أنه عرف تصنيفًا طبقيًا[١] (عامة وخاصة) تحكمت فيه مجموعة من التحولات العميقة التي مست جميع مكونات المجتمع الوسيطي، الشيء الذي يجعلنا نتساءل حول موقع صانعي الكتب ضمن هذه التغيرات والتحولات التي شهدها؟ والكيفية التي مارسوا بها أنشطتهم الاقتصادية وتفاعلوا من خلالها مع وضعيتهم الاجتماعية وفق ما تسمح به تطلعاتهم وخصوصياتهم المشتركة؟

يعتبر شح وضآلة المادة التاريخية حول موضوع الدراسة عقبة كأداء في ملامسة أهم الإشكالات التي يثيرها، مما يجعل الغوص فيه مغامرة علمية محفوفة بالمخاطر، ونظرا لقلة الإشارات التي يمكن أن تفك بعض الألغاز المرتبطة بحياة الوراقين الاجتماعية، فإن الإشكال المصدري التقليدي لن يحول بيننا وبين النبش في مصادر مختلفة ومتعددة ككتب النوازل والتراجم والطبقات والتصوف والجغرافيا، فضلاً عن مصادر التاريخ المباشر، وذلك وفق منهج ينبني على رصد الظاهرة الاجتماعية من خلال تفاعلها مع البناء السياسي والمعطيات الاقتصادية والفكرية والثقافية السائدة، في محاولة لإزالة غبار النسيان والتهميش الذي طال هذا الجزء من مكونات المجتمع الوسيطي، قديمًا وحديثًا، على الرغم من الدور الكبير الذي لعبه الوراقون في نشر الوعي والمعرفة وتثبيت جذور ثقافة الكتابة والقراءة عوضًا عن الارتكان فقط إلى ثقافة المشافهة التي سادت ونافست بشدة الثقافة الجديدة.[٢]

صناع الكتب في بلاد الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط

لم تحفل المصادر،[٣] كما هي الدراسات الحديثة[٤] بعبارة "صناعة الكتاب" بقدر ما اهتمت بـ"الوراقة" أو "صناعة الوراقة"، وخصص ابن خلدون فصلاً لها ضمن مقدمته، وأطلق على المشتغل بها اسم "الورّاق"، ونعتقد أن لهذا الاصطلاح ما يبرره نظرًا لأن الورق[٥] يدخل ضمن مجموع العمليات المتتالية في إنتاج الكتاب، ولكونه العنصر الأساسي في صناعته، وقد ظهر هذا المصطلح بعد تعرف المسلمين على مادة الورق، وانتشار صناعته في النصف الثاني

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

من القرن الثاني الهجري،[٦] إذ صنع في سمرقند منذ (١٣٤هـ/ ٧٥١م) على يد أسرى صينيين، وانتقل إلى بغداد سنة (١٨١هـ/ ٧٩٧م)، ثم انتشر في العالم الإسلامي، ودخل بلاد مصر أواخر القرن (٤هـ/ ٩م)، ليصل إلى المغرب في حدود سنة (٤٩٤هـ/ ١١٠٠م).[٧]

لقد لقيت صناعة الورق/ الكاغد رواجًا تجاريًا ملفتًا في كثير من الأحيان؛[٨] فورق شاطبة في الأندلس كان يصدر نحو المشارق والمغارب،[٩] وضمت مدينة فاس وحدها خلال العصر المرابطي ما يناهز (١٠٤) معملاً للكاغد،[١٠] واحتضنت هذه المدينة أيام المنصور والناصر حوالي أربعمائة بيت اتخذت لصناعة الورق،[١١] كما اشتهر ورق مدينة سبتة "بالورق السبتي" تميزًا له عن غيره.[١٢] كما تعددت مدلولات الوراقة خلال العصر الوسيط لكونها خضعت لمؤثرات محلية أو زمنية،[١٣] فقد جعلها ابن الحاج[١٤] قاصرة على صناعة الورق، وأفرد فصلاً خاصًا للنساخة[١٥] وآخر للتسفير،[١٦] في حين أقصرها السمعاني على "كتابة المصاحف وكتب الحديث وغيرها"،[١٧] وقد يقال لمَنْ يبيع الورق "ورّاق" أيضًا.

ويبدو أن ابن خلدون كان أكثر وضوحًا في دمج جميع مراحل إنتاج الكتاب في مصطلح "الوراقة"، إذ هي "معاناة الكتب بالانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين".(١٨) الأمر الذي حدى بالعلامة محمد المنوني(١٩) إلى اعتبارها جزء من توابع الخطاطة، وتزيد عليها لكونها تشمل تجليد الكتب وسائر الأمور الكتبية.

ومهما اختلف في ضبط المفهوم، فإن الوراقة هي حرفة انتساخ الكتب وتصحيحها بالمقابلة وبيعها، والورّاق مَنْ يستطيع دمج تلك المهام،(٢٠) وقد يكون هو الناسخ أو غيره ممَنْ ينسخون له، مع ما يستتبع عملية النسخ من تجليد وتذهيب وبيع للأوراق والأقلام والمحابر والدوى وجل أدوات المهنة، الشيء الذي أهل جزء من المجتمع لمزاولتها والارتكان في معاشهم إليها فسمي المنتسبون إليها بالوراقين. لقد شكل هؤلاء مكونًا اجتماعيًا وحّد بينهم اسم المهنة، وتباينت أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية نتيجة ظروف عديدة، أهمها احتكار السلطان(٢١) وحاشيته لهذه المهنة في الغالب، فارتبط بعض ممتهنيها بالبلاط، واستطاع أن يترقى ضمن الهرم الاجتماعي ويستفيد من الامتيازات التي تمنحها بعض الأسر الحاكمة من هبات وأعطيات وهدايا، بينما ظل جل ممتهنيها بين شح وضآلة المواد الأولية وغلاء أثمانها، وبين المستوى المتواضع للإقبال والطلب على منتوجات الحرفة.(٢٢)

لم تتردد المصادر التاريخية التقليدية في الإشارة إلى اهتمام السلطان[٢٣] وحاشيته بالكتاب (شكلاً ومضمونًا) مما انعكس بشكل إيجابي على عمليات النسخ والتجليد والكتابة وغيرها، بل أضاف الوراقون على ذلك هالة من حسن الخط بلغوا فيه الغاية،[٢٤] وأتقنوا الرسم بأكثر من خط،[٢٥] فتفننوا في نسخ المصاحف،[٢٦] وتم استدعاء خطاطين من قبل بعض الخلفاء الموحدين لتعليم أبنائهم إتقان الخط، فنبغ أبناء عبد المومن ثلاثة عشر كلهم خطاطون.[٢٧] ويظهر ذلك جليًا فيما ذاع من احتضان قصور الأمويين في الأندلس والموحدين في المغرب لثلة من الوراقين لمباشرة عمليات النسخ والتصحيح والمقابلة، فقد اشتغل بالوراقة لدى الحكم المستنصر في الأندلس الوراق ظفر البغدادي، وكان لبراعته في فن الوراقة أن عد من رؤساء وكبار الوراقين،[٢٨] وعمل لديه أيضًا من الوراقين يوسف البلوطي الذي اشتهر بجودة الخط والقدرة التامة على النسخ،[٢٩] بل إن الحكم المستنصر اتصل بالوراق عباس بن عمرو بن هارون الكتاني (٢٩٥-٣٧٩هـ/ ٩٠٧-٩٨٩م) وأنزله منزلة كريمة، وعينه من جملة الوراقين، وأمده بكل ما يلزم لمهنته من الورق والمداد وغيرها من أدوات الوراقة.[٣٠]

ولعل اهتمام البلاط الموحدي أيضًا بهذا المجال دفعه إلى توفير دواوين للنساخة داخل قصور الخلفاء، رغم صمت المصادر اتجاه هذه القضايا، مما يزيد من تعقيد دراسة الأوضاع الاجتماعية لعمال ومستخدمي هذه الدواوين، ونرجح أنهم لقوا حظوة من طرف البلاط الموحدي،[٣١] نظرًا للاهتمام الكبير من قبل الخلفاء والسلاطين بالخطاطة وتشجيعهم للوراقة بصفة عامة. ولا نستبعد أن جزءًا كبيرًا من ممتهني هذه المهنة ارتبط بالبلاط وحظي بمجموعة من الامتيازات، أهلته لأن يصنف ضمن الفئات المحظوظة اجتماعيًا، على الرغم من صعوبة تحديد موقعهم الطبقي بدقة كبيرة، خاصةً وأن التكهن بإدماجهم ضمن طبقة خاصة المجتمع لا يستند إلى واقع تاريخي واضح، نظرًا لاعتبارات عديدة أهمها أن النصوص المتوفرة لدينا لا تفصح عن طبيعة ونوعية تلك الامتيازات، ولا تتحدث إلا عن الحظوة والقرب من البلاط، مما يعقد لحد الآن ضبط موقعهم الاجتماعي.

وبالمقابل ارتبط عيش باقي الوراقين الذين اهتموا بالكتاب، إما بالمتاجرة به أو العمل بالنسخ أو التسفير أو الجمع بين جل مراحل إنتاجه، الشيء الذي يجعل دراسة أوضاعهم الاجتماعية من الصعوبة بمكان. وتزيد الرؤيا ضبابية الإشارة إلى كون الوراقين جمهرة كبيرة اتخذت الوراقة حرفة وهم من مختلف المكونات الاجتماعية، ففيهم العلماء والمتصوفة والنحات واللغويون والقضاة والكتبيون، وفيهم الأعراب ودلالوا الكتب،[٣٢] بينما الجامع بينهم محدودية دخولهم. أورد صاحب السلسل العذب أن أحمد بن عاشر السلاوي (ت.٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) كان ينسخ من كتاب "العمدة" في الغالب ثلاث نسخ في السنة، ويسفرها بيده وربما صنع لها أغشية من جلد بيده، ويبيعها لمَنْ يعرف طيب كسبه بدينار من الذهب العين للنسخة. لا يزيد على ذلك وربما نقص منه اليسير،[٣٣] مما يجعل هذا المردود السنوي محدودًا للغاية بل إنه كان في أحيان كثيرة يبيعها ولا يأخذ إلا قيمتها.[٣٤]

عمومًا يصعب إدراج جل الوراقين ضمن طبقة اجتماعية واحدة، بحيث يمكن أن تتوحد مطالبهم وتجمع مشاكلهم، وقد تدفعهم إلى توحيد صفوفهم لمواجهة التحديات المشتركة، ويظهر ذلك جليًا في التباين الواضح في مستوى مردودية وإنتاجية هذه

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الحرفة بين ممتهنيها، فقد كتب محمد بن إبراهيم بن علي المعروف بالجياني (ت. ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠م) بخطه كثيرًا جدًا... وكان حسن الهيئة والملبس.[٣٥] وبالمقابل وصف أبو هفان حال وراق بقوله: "سألت وراقا عن حاله فقال: عيشي أضيق من محبرة، وجسمي أدق من مسطرة، وجاهي أرق من الزجاج، وحظي أخف من شق القلم، ويدي أضعف من قصبه، وطعامي أمر من العفص، وشرابي أسود من الحبر، وسوء الحال ألزم لي من الصمغ".[٣٦]

لقد عكس هذا التباين في أحوال الوراقين -الذين اقتصروا في معاشهم على مداخيل المهنة- اختلاف مواقعهم الاجتماعية، على الرغم من أن غالبيتهم العظمى يمكن اعتبارها جزءًا من طبقة العامة استنادًا للمردودية الضعيفة والارتكان فقط إلى ما تدره هذه الحرفة، ويزكي ذلك صمت المصادر في غياب الإشارة إلى أي إطار تنظيمي يجمع ممتهني هذه الحرفة على غرار بعض الحرف الأخرى، ثم لتعدد وتنوع مراحلها[٣٧] وغلاء موادها الخام.

ولجاذبية هذه المهنة فقد باشر مجموعة من العلماء وبعض الأمراء الذين انصرفوا إلى خارج القصور لأسباب مختلفة مهنة الوراقة،[٣٨] نظرًا لامتلاكهم بعض أساسيات الحرفة؛ إذ كان شرط العلم بالكتابة أساسيا لولوجها، فإذا لم يتوفر للعالم عمل يركن إليه في معاشه، أو أصاب الأمير غضبة ولي أمره لجأ إلى الاشتغال بنسخ الكتب،[٣٩] ولذلك أصبحت الوراقة الملجأ السهل والأقرب الذي لجأ إليه أبو زيد الخليفة عمر المرتضى الموحدي، حيث صار يتعيش من حرفة النسخ منذ سنة (٧١٢هـ/ ١٣١٢م)[٤٠] بعد أن كان من خاصة الناس، كما أن محمد بن عبد الله بن أبي يحي بن الرميمي فرّ إلى مدينة فاس، بسبب مقتل ابن مخلوف عامل الخليفة عبد المومن بن علي، وبقي بها خاملاً، يسكن في غرفة ويتعيش من النسخ.[٤١]

وإذا كان حسن الخط إحدى شروط إتقان الصنعة وارتفاع مستوى الطلب عليها، فقد برع مجموعة من المغاربة في حسن الخط وتنميقه، إذ أحصى العلامة محمد المنوني[٤٢] أسماء خطاطين مغاربة عاصروا الدولة الموحدية بلغ عددهم تسعة (٩) خطاطين، من بينهم أبو عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الأنصاري الخزرجي (ت.٥٩٠هـ/ ١١٩٣م) الذي كان "جيد الخط سريع الكتابة تعيش دهرًا طويلاً بالوراقة، وكتب بخطه الكثير وأتقنه"،[٤٣] وكان محمد بن أحمد ابن الطراوة المراكشي (ت.٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م) "بارع الخط أنيق الوراقة".[٤٤]

كما كان لمستوى تجليد الكتاب دور كبير في ارتفاع سعره، وأطلق على هذه العملية اسم "تسفير الكتب"، وقد وصلت إلينا رسالة بهذا الصدد تعود إلى العصر الموحدي تحمل عنوان "التيسير في صناعة التسفير" لأبي بكر بن إبراهيم الإشبيلي،[٤٥] وهي رسالة قيمة تشير إلى مجموعة من الأدوات المستخدمة في هذه الصناعة، وما يستعمل منها في تحضير الأوعية الجلدية للكتب ولبعض أدوات الكتابة كالمحبرة والأقلام وغيرهما، ونظرًا لمستوى الاهتمام الذي طال عملية تجليد الكتب وتسفيرها حتى أضحت في أحيان كثيرة أداة للزينة في منازل الأثرياء والمحظوظين اقتصاديًا، مما رفع من أثمانها، وفي ذلك يذكر المقري فشل أحد الفقهاء في الحصول على بغيته من كتاب في سوق قرطبة نظرًا للمنافسة التي طالت شراءه من قبل أحد الأثرياء الأندلسيين، إذ لما رآه هذا الأخير حسن الخط جيد التجليد استحسنه ولم يبال بما يزيد في ثمنه،[٤٦] رغم أنه غير مهتم بالقراءة ولكنه كما يقول لما "أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه".[٤٧]

قصارى القول؛ فقد كان حسن الخط وتجليد الكتب من الشروط الأساسية في الإقبال وكثرة الطلب على منتسخات الوراق، إذ اشتهر أبو حفص عمر بن عبد الله السلمي الأغماتي نزيل فاس (٥٣٠-٦٠٣هـ/ ١١٣٥-١٢٠٦م) "بجودة الخط وبراعة الأدوات.. ونال منها دنيا عريضة"،[٤٨] أما ابن علي بن العابد الأنصاري الفاسي (ت.٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م) فقد كان "نساخًا بارعًا مواظبًا، نسخ بيده كبار الدواوين... ولم يفتر قط من النسخ"،[٤٩] ولا نستبعد أن تكون هذه المواظبة الدائمة على النسخ تنم عن ارتفاع مستوى الطلب على القراءة رغم ظهور بعض الاهتمام الرمزي بالكتب لاستعمالها في الزينة والمباهاة، إلا أن ذلك لم يفقد القراءة قيمتها وحجمها الثقافي، بل يعكس من جهة أخرى التحسن النسبي الذي طال مداخيل الوراقين.

ولعل الطلب الذي أصبح متزايدًا على القراءة[٥٠] بفعل عوامل كثيرة أهمها توفر أغلب مواد الكتابة وانهماك بعض ممتهني حرفة الوراقة في البحث عن الأفضل من حيث جودة النسخ والتنميق والتجليد وغيره زاد من جاذبية الكتاب من جهة، ومن جهة ثانية توفير الكتب ذات المواضيع المقبولة والمطلوبة[٥١] استجابة لحاجيات السوق، وتوجيه غير مباشر من قبل السلطة السياسية القائمة،[٥٢] مما أدى إلى ارتفاع في مستوى المردودية والإنتاجية، واستطاع البعض تكوين خزائن خاصة من المصادر وأمهات الكتب، ودكاكين لمزاولة هذه الحرفة عوض العمل في البيوت والمنازل، كما هو الشأن بالنسبة لأبي عبد الله بن الطراوة المراكشي (ت.٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م)، الذي "كان بارع الخط رائق الطريقة، أنيق الوراقة، نسابة لخطوط المشايخ.. ظريف الملابس، شديد المحافظة على كتبه، مثابرًا على الاعتناء بتصحيحها، مهتمًا باقتناء الأصول التي بخطوط أكابر الشيوخ أو عنوا بضبطها، وجمع منها جملة وافرة".[٥٣] كما برع أحمد بن عباس بن أبي زكرياء في نسخ الكتب، وكان "ذا خط بديع مشتهرًا بجمع الكتب وتخيير نفائسها، مغاليًا فيها، نفاعًا من خطه بها، لا يستخرج منها شيئًا لفرط بخله بها، إلا لتسبيلها حتى لقد أثري كثير من الوراقين والتجار معه فيها، وجمع منها ما لم يكن عند ملك".[٥٤]

فلا غرو إذن؛ أن من جملة الوسائل المحفزة للإقبال على تجارة الكتب ونيل المكانة الاجتماعية، توفر مجموعة من الشروط أهمها قدرة الوراق التاجر على اختيار نفائس الكتب التي تشغل بال القارئ، مع الاهتمام الكبير بتحسين مستوى النسخ والتجليد وما إلى ذلك من ضروريات في إتقان الصنعة.

ومن جهة أخرى؛ فإن العمل المأجور[٥٥] بالوراقة كان أشد ارتباطًا بمسألتي العرض والطلب،[٥٦] إذ كلما ارتفع مؤشر مستوى القراءة نما دخل الأجراء، وكلما قل الطلب أو تضخم العرض تم الاستغناء عنهم، مما يزيد من تدهور وضعهم الاجتماعي وتدني وتراجع مستواهم الاقتصادي، وبذلك نستبعد التوجه[٥٧] الذي عمم المنزلة الرفيعة للوراقين التي نالوها من خلال مهنتهم التي مكنتهم من درجة طيبة من الثراء.

إن تعميم هذا الاستنتاج لا يستند إلى واقع تاريخي نظرًا لكون الوراقين لم يشتغلوا جميعًا في كل مراحل إنتاج الكتاب، بل منهم مَنْ اقتصر فقط على المتاجرة به دون أي علاقة له بالنسخ أو التجليد، ومنهم مَنْ اقتصر على النسخ فقط أو أضاف إليها التجليد دون أية علاقة له بالسوق، ومنهم مَنْ جمع هذه المراحل جميعها، فكوّن لنفسه دكانًا أو جزء من بيته أو منزله للنسخ وآخر للبيع والمتاجرة، فضلاً عن وجود اختلاف واضح في مستوى الإقبال على القراءة بين مجالات ومدن الغرب الإسلامي، ويبقى الاستنتاج السابق ذو رؤية أحادية يُنظر إلى الوراقين من زاوية علاقتهم بالأسر الحاكمة فقط. في حين أن ما يؤكد ما ذهبنا إليه أن قوت ابن عاشر السلاوي الصوفي (ت.٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) بسلا لم يكن إلا من نسخ كتاب "العمدة" في الحديث، كان يبيعها ولا يأخذ إلا قيمتها،[٥٨] كما وجد مَنْ لم يحالفه الحظ في هذه المهنة، فلم ينل منها ما كان يصبو إليه، فصب جام غضبه عليها، كما أشار عبد الله بن صارة الشنتريني الأندلسي[٥٩] بقوله:

أما الوراقة فهي أيكة حرفة ... أوراقها وثمارها الحرمان
شهيت صاحبها بصاحب إبرة ... تكسو العراة وجسمها عريان

ولعل جل المشتغلين بهذه الحرفة لم ينالوا منها ما كانوا يأملون من تحسن ورقي في أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، بل أصاب الكثير منهم النكد والفاقة وضعف الحاجة، فلم تلب لهم أدنى متطلبات العيش حتى عد بعضهم حياته وموته سيان:[٦٠]

إن الوراقة حرفة مذمومة ... مخرومة يمشي بها زمن
إن عشت عشت و ليس لي أكل ... أو مت مت وليس لي كفن

بل لا نستبعد أن هذا الوضع الاجتماعي والاقتصادي المحرج دفع بعضهم إلى الاستعانة في أحيان كثيرة بتوريث أبنائهم هذه حرفة، لمساعدتهم في مواجهة نوائب الدهر، فقد اشتغل الفقيه أحمد بن علي الحطيئة الفاسي بالنسخ وعلم زوجته وابنته، فكانتا تكتبان مثل خطه، ونسخ الكثير بالأجرة،[٦١] وهذا ما يظهر أن الفقر والحاجة دفعا بعض الوراقين إلى تحويل مساكنهم إلى "ورشة عمل" يومية يشارك فيها جل أفراد الأسرة، كما هو شأن هذا الوراق الفقيه مع أسرته، فعلى الرغم من كونه فقيهًا[٦٢] فقد أتقن أهله الحرفة وقسموا الأدوار خلال عملية النسخ حتى "إذا شرعوا في نسخ كتاب أخذ كل واحد جزءًا وكتبوه فلا يفرق بين خطوطهم إلا حاذق".[٦٣]

قصارى القول؛ إن حرفة الوراقة لقيت اهتمامًا كبيرًا من قبل السُلْطات التي حكمت بلاد الغرب الإسلامي منذ وقت مبكر من العصر الوسيط، حيث احتضنت قصورهم العديد من المشتغلين بهذه الحرفة، ونرجح أنهم أغدقوا عليهم الأموال والأعطيات والهدايا، كما استفاد الوراقون من الحظوة والامتيازات لقربهم من الأمراء والسلاطين، في حين احترف البعض الآخر هذه المهنة، وحاول الاعتماد عليها في تأمين معاشه ورزقه، حسب ما يقتضيه التوفيق بين مسألتي العرض والطلب، فتباينت أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بين من حسن أداؤه الورقي فأثر بشكل إيجابي في مستواه المعيشي، وبين مَنْ لم يجد فيها إلا العناء والمشقة، مما اضطر بعضهم إلى الاستعانة بأبنائه وأهله أو امتهان حرفة أخرى مساعدة، مما فسح المجال لبعض النسوة من إبراز مواهبهن والتألق أحيانًا في هذه الصناعة، إذ امتهنت سارة بنت أحمد بن عثمان بن الصلاح - نزيلة المغرب والمتوفاة في فاس- الوراقة، وكانت متقنة لها، وتكتب الخط المستحسن، ولبراعتها اشتهرت بالكتابة بالذهب.[٦٤]

وتبدو مشاركة المرأة في العمل الوراقي مشاركة فعالة، إذ ظهرت فئة من النساء اللائي شاركن بقوة في هذه المهنة؛ إذ كان في أحد مراكز النسخ في قرطبة خلال القرن (٤هـ/ ١٠م) حوالي (١٧٠) امرأة تعمل في نسخ القرآن الكريم فقط،[٦٥] ولا نستبعد أن لذلك أثره في بلوغ بعضهن منزلة لدى الخلفاء، حيث كان للخليفة عبد الرحمن الناصر كاتبة تدعى مزنة، وصفت بالمهارة في النسخ وحسن الخط.[٦٦] وكان أيضًا للخليفة الحكم المستنصر كاتبة تدعى لبنة (ت.٣٧٤هـ/ ٩٨٤م)، اشتهرت بالبراعة في الكتابة، وسعة الأدب، حتى قال في وصفها ابن بشكوال "لم يكن في قصرهم أنبل منها، وكانت عروضية خطاطة جدًا".[٦٧]

وتجدر الإشارة إلى؛ أن ارتباط الوراقة بالعلم والقراءة، فرض على ممتهنيها مستوى علمي ومعرفي لابأس به كحد أدنى بقواعد النسخ، مما يجعلنا نتساءل عن مسألة تعليم المرأة خلال العصر الوسيط؟ لقد اشتهرت بنات فئتان اثنتان بتحصيل العلم خلال العصر الوسيط،[٦٨] هما:

- **بنات البيوتات الحاكمة**؛ ويبدو أن اهتمامهن بدراسة بعض العلوم، جعلهن يهتمن بإجادة الخط وإن كان عملاً ترفيهيًا، والقصد منه ليس احتراف النسخ.
- **بنات البيوت العلمية**؛ إذ حرصت هذه البيوت على تعليم أبنائها وبناتها، ولا نستبعد أن أغلب النساء اللائي تعاطين مهنة الوراقة كن منتميات إلى أسر علمية مشهورة،[٦٩] دفعتهن أوضاعهن الاجتماعية والاقتصادية (الجديدة) إلى تعاطي هذه الحرفة؛ فقد كانت سعيدة بنت محمد بن فيرة الأموي التطيلي

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

في بيت خير وصيانة. وكانت تنسخ الكتب، نافذة فيما تكتبه،[٧٠] وقد أشار أحد الباحثين[٧١] إلى أن سعيدة هذه سكنت هي وأختها – معًا- مدينة مراكش واشتغلتا بنساخة الكتب، وقد عدهما من بين النساء الأندلسيات اللائي استوطن المغرب خلال عصر الموحدين.

كما لا نستبعد أن بعض النساء اللائي كن في خدمة الأمراء استفدن من التعليم حتى أن سيدة بنت عبد الغاني بن عثمان العبدري عملت في ديار الملوك عمرها كله، إلى أن أقعدتها عن ذلك زمانة ألزمتها منزلها نيفًا على ثلاثة أعوام، وقد نشأت في مرسية وتعلمت القرآن وبرعت وجاد خطها.. ونسخت إحياء علوم الدين من أصله.[٧٢]

ولعل بعض الجواري تمكن من ممارسة هذه المهنة؛ فقد اشتهر عن أميمة الكاتبة جارية الحسين بن حي أنها كانت تكتب المصاحف وتحبسها،[٧٣] كما استفادت بعضهن من وضعهن في قصور الأمراء، فأجدن صناعة الخط، مثل قلم جارية عبد الرحمن بن الحكم التي ذاع صيتها في الآداب وحسن الخط.[٧٤]

ويبدو أن المرأة شاركت في عمل الوراقة بالقدر الذي سمحت به ذهنيات المجتمع الوسيطي على الرغم من العقلية الذكورية السائدة، فقد استطاعت بعض النساء مثل عائشة بنت أحمد (ت. ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م) أن تكسب بعمل الوراقة مكتبة عامرة بالكتب.[٧٥] إلا أن خروج المرأة ميدان العمل الحرفي كالوراقة ربما اصطدم بالأعراف الاجتماعية، فخلق اتجاهها موقفًا سلبيًا من قِبل المجتمع - الذكوري- حرم بعضهم من متعة الزواج؛ مثل "فاطمة بنت زكرياء بن عبد الله التي كانت تجيد الخط والقول، وتكتب الكتب الطوال.. ماتت بكرًا سنة (٤٢٧هـ/ ١٠٣٥)".[٧٦]

خلاصة القول؛ فقد استطاعت المرأة أن تبرز كفاءتها في صناعة الوراقة، وتمكنت من الوصول درجة إتقان الصنعة خطاطة ونسخًا وبيعًا، إما عن طريق وراثة المهنة أو بتعلمها، مستفيدات من وضعهن الاجتماعي داخل بلاط الأسر الحاكمة، أو انتمائهن إلى أسر علمية ساعدتها على طلب وإجادة الخط خاصة.

ومن جهة أخرى؛ فإن بعض النصوص تفصح عن اهتمام أهل الذمة[٧٧] بالكتب، ولكنها تغض الطرف عن مشاركتهم في صناعتها، مما يترك بعض الفراغات يصعب ترميمها، على الرغم من أننا لا نستبعد مشاركة المسيحيين في النسخ والتسفير، بينما اقتصرت مشاركة اليهود على عمليات التسفير فقط،[٧٨] والاهتمام ببعض كتبهم الدينية ومؤلفاتهم العقدية سواء المسيحية أو اليهودية، والتي لم تجد مكانها في السوق، بل كان يتم توزيعها وبيعها بطرق طغى عليها الكتمان والسرية.

خاتمة

عمومًا، ضمت الوراقة خليطًا اجتماعيًا من ممتهنيها، تباينت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية بين من استفاد منها وارتقى مستواه المعيشي، وبين مَنْ لم يحالفه الحظ في إصلاح شأنه، فحاول البحث عن مداخيل إضافية أو التخلي والاستغناء عنها كليًا، في حين بقي بعضهم رغم ممارستهم لها، فقد كانوا رهن إشارة بعض الأسر الحاكمة بوصفها سوق نافقة لأغلب الكتب، مما أهل بعضهم لنيل كثير من الامتيازات بالتقرب من الأمراء والخلفاء. وعلى الرغم من هذا التباين الاجتماعي، فقد هيأت ظروف "الانتعاش" الاقتصادي والواقع السياسي في فترات ترف الدولة - كما حددها ابن خلدون خلال العصر الوسيط- المجال أمام ظهور حركة حرفية وتجارية ورقية نشيطة، أفرزت عدة أشكال من الاهتمام بالكتاب، كان أهمها وضع الأسس والقواعد التي قامت عليها ثقافة الكتابة والقراءة لدى جل الشرائح الاجتماعية، مما ساعد على تكوين مكتبات وخزائن للمخطوطات، تنوعت أهدافها ومقاصدها بتنوع المستوى الاجتماعي والاقتصادي لممتلكيها.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهَوامِشُ:

(١) إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع الذهنيات الأولياء**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، أبريل ١٩٩٣، ص١٢٧- ١٢٨. وللمؤلف نفسه، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى يونيو ١٩٩٨، ص ١١٨- ١١٩. هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري**، منشورات وزارة الأوقاف، الرباط، ١٩٩٥، الطبعة الأولى. محمود إسماعيل، **في مجموعة من الأبحاث والدراسات حول بلاد الغرب الإسلامي وخاصة سوسيولوجيا الفكر الإسلامي**. أحمد الطاهري، **عامة إشبيلية في عصر بني عباد**، دكتوراه دولة، مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، ١٩٩٥م. أحمد المحمودي، **عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي**، دكتوراه دولة، مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، ٢٠٠٠.

(٢) لم تكن ثقافة الكتاب التي تشمل الاهتمام بالقراءة والتأليف وليدة المجتمع المغربي أو الأندلسي ولكنها صاحبت الوافدين المشارقة إلى المغرب والأندلس خاصةً مع العلماء والفقهاء الذين عملوا على أسلمة وتعريب المجتمع خلال مراحل الفتح، بعد أن كانت المشافهة الوسيلة الوحيدة والأساسية للتواصل ونقل الأفكار والمعلومات، فقامت بين الثقافتين منافسة قوية، لم تستطع خلالها ثقافة الكتابة أن تلغي المشافهة فظلتا جنبًا إلى جنب حتى يومنا هذا.

(٣) ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص: ٣٧١-٣٧٥-٣٧٦-٣٩٢. ابن الحاج، **المدخل**، المطبعة الوطنية، الإسكندرية، ج٣ ص ١٣١.

(٤) محمد المنوني، **حضارة الموحدين**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، ص: ١٨٢. شعبان عبد العزيز خليفة، **الكتب والمكتبات في العصور الوسطى الشرق المسلم- الشرق الأقصى**، مجموعة البيبليوغرافيا التاريخية الدار المصرية، اللبنانية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ١٤٩. سامية مسعد، **الوراقة والوراقين في الأندلس من عصر الخلافة حتى نهاية عصر الموحدين**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، ص: ٣٠.

(٥) ويسمى أيضًا الكاغد، انظر علي الجزنائي، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص: ٤٤.

(٦) شعبان عبد العزيز خليفة، **الكتب والمكتبات في العصور الوسطى الشرق المسلم- الشرق الأقصى**، ص ١٤٩.

(٧) رمضان ششن، **نظرة عامة على الكتاب والمكتبات والوراقين في التاريخ الإسلامي**، مجلة التاريخ العربي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، عدد ٣٢، خريف ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص ٣٥-٣٦.

(٨) ما دامت الدولة هي السوق الأعظم للصنائع، فإن الصنعات الكمالية على الخصوص ارتبطت بمرحلة ترف الدولة حسب التعبير الخلدوني، مع ما تتطلبه هذه الصناعات من تشجيع واهتمام من قبل السلطان واستتباب للأمن خاصة في المدن، مما يؤدي إلى تنشيط ورواج كل ما يخدم احتياجات الدولة ويلبي طلباتها من وسائل الحضارة والترف. ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٣٩٢ و٤٠٥. إبراهيم القادري بوتشيش، **الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، دكتوراه دولة، مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، ١٩٩١م، مرقونة، ص ١٦٦. أحمد الصديقي، **الكتاب بالمغرب والأندلس، إسهام في دراسة انعكاسات ثقافة الكتاب على المجتمع (من القرن ٦هـ/ ١٢م إلى القرن ٨هـ/ ١٤م)**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، السنة الجامعية ٢٠١٠-٢٠١١م (مرقونة)، ص ٤٧ وما بعدها.

(٩) الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٩م، ٥٥٦/٢.

(١٠) محمد المنوني، **تاريخ الوراقة المغربية صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم: ٢، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م ، ص: ٢١.

(١١) علي الجزنائي، **جنى زهرة الآس**، ص ٤٤.

(١٢) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ٥٥٦/٢.

(١٣) محمد المنوني، **تاريخ الوراقة المغربية** ، ص: ١١.

(١٤) ابن الحاج، **المدخل**، ١٢٧/٣.

(١٥) نفسه، ١٣٠/٣-١٣١.

(١٦) نفسه، ١٣٣/٣.

(١٧) سامية مسعد، **الوراقة والوراقون في الأندلس**، ص: 34.

(١٨) ابن خلدون، **المقدمة**، ص: ٣٩٢.

(١٩) محمد المنوني، **حضارة الموحدين**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، ص: ١٨٢.

(٢٠) أشار عبد العزيز خليفة إلى أن "الوراق في بدايته كان يعني الناسخ الذي ينسخ الكتب بخط يده، ثم تطور المفهوم ليدل على سلسلة العمليات الداخلة في إنتاج الكتاب، وغدا الناسخ طرفًا واحدًا في عملية الوراقة، وغدت النساخة حلقة من حلقات الوراقة"، **الكتب والمكتبات في العصور الوسطى**، ص: ١٤٩.

(٢١) يعتبر مجموعة من الباحثين في مجال الوراقة -نموذج فوزي عبد الرزاق- تجارة الكتب في العصر الوسيط سوقًا موجهة، إذ كانت الجهة التي يصدر عنها الطلب -وغالبًا ما كان السلطان وحاشيته- تملي شروطها المتعلقة بطبيعة المنتوج ومواصفاته. فوزي عبد الرزاق، **مملكة الكتاب تاريخ الطباعة في المغرب ١٨٦٥-١٩١٢**، منشورات كلية الآداب الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٤٥.

(٢٢) كان تحت رواق جامع عبد المؤمن قرب القصبة بمراكش نحو مائة دكان للكتبيين، شكلت سوقًا للكتب يمارس فيها الوراقون حرفتهم بعيدًا عن قصور الخلفاء والسلاطين، بل كانت منتوجاتهم موجهة إلى عامة الناس فضلاً عن الأسر الحاكمة، فقد التزم ابن أبي الصقر الأنصاري المتوفى في مراكش عام ٥٢٣هـ بالوراقة في حانوت بغربي جامعها، كما أن ملامح هذه الصنعة استمرت بمدينة فاس قرب جامع القرويين وأصبح يطلق على مدخل مجالها اسم "باب الوراقين"، وقد بلغت حسب الحسن الوزان ثلاثين دكانا للكتبيين. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٣، ص: ٤٢. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت والشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، ٢٣٣/١. محمد المنوني، **تاريخ الوراقة المغربية**، ص: ٣٤

(٢٣) شهدت بلاد الأندلس خصوصًا على العهدين الأموي والعامري اهتمامًا كبيرًا بالثقافة الكتابية فانعكس ذلك على أداء الوراقين. انظر: سعد عبد الله صالح البشري، **الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس ٣١٦- ٤٢٢هـ/ ٩٢٨- ١٠٣٠م**، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، سلسلة الرسائل العلمية الموصى بطبعها، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م. وله مؤلف آخر يتناول الحياة العلمية بالأندلس زمن عصر ملوك

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الطوائف. كما نلاحظ الأمر نفسه بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي، انظر جل كتابات العلامة محمد المنوني حول الوراقة نموذج: تاريخ الوراقة المغربية/ حضارة الموحدين.

(٢٤) يروي ابن مرزوق أن أبي الحسن "أخذ من كاتب وقته المنفرد بتجويد الخط المصحفي في عصره المنجليلي، وكان قد بلغ فيه الغاية، فتعلم منه أصوله حتى صار خطه يختلط بخطه". محمد بن مرزوق الخطيب، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، إصدارات المكتبة الوطنية، النصوص والدراسات التاريخية رقم ٥، ص ٤٧٤.

(٢٥) يصف ابن عذاري المراكشي الخلفاء الموحدين بأنهم كانوا يجيدون الكتابة بأكثر من خط. **البيان المغرب**، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، دار الغرب الإسلامي، ٣٢٠/٣.

(٢٦) ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص ٤٧٤-٤٧٥.

(٢٧) محمد المنوني، **تاريخ الوراقة المغربية**، ص ٢٧-٢٨.

(٢٨) ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر بيروت، ١٩٩٥م ، ٣٤٧/١.

(٢٩) ابن بشكوال، **كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم**، نشر وتصحيح عزت العطار الحسيني، القاهرة ١٩٥٥، ٣١/١.

(٣٠) سعد البشري، **الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس**، ص: ١٣١.

(٣١) أحمد الصديقي، **الكتاب بالمغرب والأندلس**، ص ١١٨-١٢٠.

(٣٢) سامية مسعد، **الوراقة والوراقون في الأندلس**، ص: ٤٩.

(٣٣) محمد بن أبي بكر الحضرمي، **السلسل العذب**، تحقيق مصطفى النجار، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية، سلا، المغرب (د . ت)، ص: ٢١.

(٣٤) ابن القاضي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م ، ص: ١٥٣. ابن القاضي، **ذرة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق محمد الأحمدي، المكتبة العتيقة بتونس، دار التراث، القاهرة، ١٩٣٠م ، ص: ١٤٨- ١٤٩.

(٣٥) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تقديم وتحقيق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، السفر الثامن، ص ٥١١.

(٣٦) منصور محمد سرحان، **المكتبات في العصور الإسلامية**، مكتبة فخراوي، البحرين، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص ١٧٤.

(٣٧) تتعدد مراحل الوراقة من نسخ ومقابلة وتجليد وتزويق، وقد يتقن الشخص مرحلتين أو ثلاث وقد لا يتقن إلا واحدة أو اثنين.

(٣٨) محمد ماهر حمادة، **المكتبات في الإسلام**، ص ٧٧- ٧٨.

(٣٩) عبد العزيز خليفة، **الكتب والمكتبات**، ص: ١٦٠.

(٤٠) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، القسم الموحدي، ص: ٤٥٤. محمد المنوني، **ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين**، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطابع الأطلس، ١٩٩٢م، ص: ١٩٦-١٩٧. نفسه، تاريخ الوراقة المغربية، ص: ٥٩.

(٤١) ابن سعيد الغرناطي، **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٥٥م ، ١٦٥/٢.

(٤٢) محمد المنوني، **حضارة الموحدين**، ص ١٨١.

(٤٣) ابن ابراهيم العباس بن محمد السملالي المراكشي، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، المطبعة الجديدة، فاس، ١٣٥٥-١٣٥٨/ ١٩٣٦-١٩٣٩، ٦٥/٣.

(٤٤) نفسه ١٤٨/٣- ١٤٩.

(٤٥) أبو بكر بن إبراهيم الإشبيلي، **التيسير في صناعة التسفير**، تحقيق عبد الله كنون، فصلة من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلدان السابع والثامن، ١٩٥٩- ١٩٦٠.

(٤٦) أحمد بن محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ٤٦٢/١ - ٤٦٣.

(٤٧) نفسه، ٤٦٣/١.

(٤٨) ابن الأبار، التكملة، ١٦٢/٣.

(٤٩) ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، ص ١٤٤.

(٥٠) كانت منسوخات أبي بكر بن خير "تجاوزت في أثمانها الغاية التي عهد بها، وتمادت رغبة الناس في اقتناء ما يوجد بخطه أو بتصحيحه او منافستهم فيه إلى الآن". ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، س ٨، ص: ٣٠٢

(٥١) كانت السلطة السياسية فاعلاً أساسيًا في تحديد وتوجيه مواضيع القراءة إذ تم تشجيع نوع معين على حساب أنواع أخرى فرض عليها الحظر والرقابة، وذلك وفق رغبات وتوجه السلط التي حكمت المغرب الأقصى والأندلس، إذ قام يعقوب المنصور مثلاً بعد معركة الأرك سنة ٥٩١هـ بمصادرة كتب الفروع وأحرقها بعد أن جردها من آيات القرآن والأحاديث النبوية، وحرقت منها أعداد كبيرة، وكادت دراسة علم الفروع تنقطع بعد ذلك، بسبب التهديدات والحرائق التي توعد بها يعقوب المنصور، فخافه الفقهاء وأمر بإحراق كتب المذهب المالكي، فأحرق منها في سائر البلاد مدونة سحنون وجامع ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد القيرواني ومختصره، وكتاب التهذيب للبرادعي وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها، وهي أجود ما ألف في فقه المالكية. بل إن صاحب المعجب يروي أنه شاهد عند إحراق كتب الفروع يؤتى منها بالأحمال، فتوضع ويطلق فيها النار. عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م ، ص: 197- ١٩٨. عمر الجيدي، **محاضرات في تاريخ المذهب المالكي**، ص: ٥٥. الحسن السائح، **الحضارة الإسلامية في المغرب**، ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٥٢) هناك توجيه للقراءة من قبل السلطة نلمسه منذ العهد المرابطي إذ "لم يكن يقرب من أمير المسلمين (تاشفين بن علي) ويحظى عنده إلا مَنْ عَلم علم الفروع، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب... ونبذ ما سواها... واستحكم في نفسه (أمير المسلمين) بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه... وتقدم بالوعيد الشديد - من سفك الدماء واستئصال المال- إلى من وجد عنده شيء من (كتب الغزالي) واشتد الأمر في ذلك". أنظر عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ص ١٢٢. إلا أن هذا لم يلغي انتعاش سوق كتب معارضة ومناوئة للسلطة السياسية ولكن بطريقة يسودها نوع من التخفي، إذ كان أبو الفضل المعروف بابن النحوي يحمل عدة أسفار من كتاب الأحياء بعد الأمر بإحراقها من قبل أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين سنة (٥٠٣هـ/ ١١٠٩م)، ولعله كان يقوم بالدعاية لقراءتها كما "انتسخ الإحياء في ثلاثين جزءًا". أبي يعقوب بن يحي التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب الرباط، بحوث ودراسات رقم ٢٢، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية ١٩٩٧، ص ٩٦.

(٥٣) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، س ٨، ص ٢٦٥.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(٥٤) لسان الدين بن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، حققه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبد الله عنان، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ/ ١٩٨٤م ، ١/٢٥٩- ٢٦٠.

(٥٥) ابن بشكوال، **الصلة**، ١/٣١٠-٣١١.

(٥٦) فوزي عبد الرزاق، **مملكة الكتاب تاريخ الطباعة في المغرب** (١٨٦٥-١٩١٢)، ص ١٩.

(٥٧) سعد البشري، **الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس**، ص: ١٣٢. سامية مسعد، **الوراقة والوراقون في الأندلس**، ص: ٤١.

(٥٨) ابن قنفذ، **أنس الفقير وعز الحقير**، ص: ١٥٦.

(٥٩) أبي بكر بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت (د ت) المجلد الثالث، ص ٩٣.

(٦٠) انظر: عبد العزيز خليفة، **الكتب والمكتبات**، ص: ١٧١.

(٦١) عبد العزيز خليفة، **الكتب والمكتبات**، ص: ١٥٦.

(٦٢) لا نستبعد أن يكون هذا الوراق أيضًا مكلفًا بتدريس الأطفال في المسجد مقابل أجر، أو يأخذ مقابل من أوقاف المسجد إن كان إمام.

(٦٣) عبد العزيز خليفة، **الكتب والمكتبات**، ص: ١٥٦.

(٦٤) ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٦٥) ألكسندر ستيبتشفيتش، **تاريخ الكتاب**، ترجمة محمد الأرناؤوط، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد (١٦٩)، رجب ١٤١٣هـ/ يناير ١٩٩٣م، ص : ٢٤٦.

(٦٦) ابن بشكوال، **الصلة**، ٢/٦٩٢.

(٦٧) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، س ٨، ص: ٤٨٧ و٤٩٤.

(٦٨) إسكان الحسين، **تاريخ التعليم في المغرب خلال العصر الوسيط (١ - ٩هـ/٧ - ١٥م)** المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، سلسلة الدراسات والأطروحات رقم ٢، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ٢٠٠٤، ص: ٣٦.

(٦٩) يشير أحمد المحمودي إلى؛ أن طلب العلم كان حكرًا على بيوتات معينة توراثته فيما بينها، نموذج بيت بني الملجوم وبيت بني الجزولي وبيت بني التاودي، **عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي**، جامعة المولى إسماعيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، سلسلة دراسات وأبحاث رقم٧، منشورات عكاظ، الرباط ٢٠٠١، ص: ١١٥.

(٧٠) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، س ٨، ص: ٤٨٧ و ٤٩٤.

(٧١) محمد المنوني، **تاريخ الوراقة المغربية**، ص: ٣٨.

(٧٢) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، س ٨، ص: ٤٨٧.

(٧٣) نفسه، س٨، ص: ٤٨٤.

(٧٤) نفسه، والصفحة نفسها.

(٧٥) ابن بشكوال، **الصلة**، ٢/٦٩٢.

(٧٦) ابن بشكوال، **الصلة**، ١/١٣٦.

(٧٧) كتب مطران قرطبة الغاروفي (ق. ٣هـ/ ٩م)، أن جميع المسيحيين المميزين بالذكاء كانوا يعرفون لغة العرب وآدابهم، ويقرؤون ويطالعون كتب العرب بولع، ويجمعون مكتبات كبيرة من تلك الكتب بنفقات باهظة. سعد البشري، **الحياة العلمية في عصر الخلافة**، ص: ١١٥. ماهر حمادة ، **المكتبات في الإسلام**، ص: ٩٩.

(٧٨) يشير ابن الأحمر إلى "أن اليهود الذين أسلموا اشتغلوا بتسفير الكتب"، **بيوتات فاس الكبرى**، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢. ص: ٢٤.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449